خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٢٣/١/٢٠٢٦

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحيم * الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمينَ * الرَّحْمَن الرَّحيم * مَالك يوْم الدِّين * إيَّاكَ نعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعينُ * اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقيمَ * صِرَاط الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوب عَلَيْهمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

إنني بصدد ذكر سيرة النبي الكريم ﷺ، وقد ذُكر في الخطب السابقة حب النبي ﷺ لله تعالى، وسأذكر اليوم مزيدًا في هذا السياق.

لقد تقدم بعض الكلام عن طريقة عبادة النبي ﷺ وجمالها، وسأذكر اليوم أيضا ذلك من خلال الأحاديث، وكذلك من خلال ما رسمه المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام - الخادم الصادق للنبي ﷺ - من صورة لمقام النبي ﷺ ومرتبته وعشقه لله تعالى.

لقد ورد في رواية عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَح الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، (أي يكمل قراءة السورة كلها) فَمَضَى، فَافْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، فَكَانَ قِيَامُهُ قَرِيبًا مِنْ رُكُوعِهِ، ثُمَّ سَجَدَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ رُكُوعِهِ.

هذه كانت طريقة أدائه ﷺ النوافل التي عاينها أحد الصحابة.

وكذلك تروي عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قام ذات ليلة يتلو آية واحدة من القرآن الكريم، أي بعد سورة الفاتحة كان يعيد تلاوة الآية نفسها مرارا في القيام.

بحسب الرواية السابقة لأحد الصحابة كان ﷺ يقرأ سورا طويلة متعددة في قيام طويل، أما هنا فكان القيام الطويل على آية واحدة فحسب.

وقد مرت في الخطب السابقة رواية السيدة عائشة رضي الله عنها عن طول قيامه ﷺ وركوعه وسجوده، بحيث قالت إن قيامه وركوعه وسجوده كان طويلا جدا حتى قالت: لا تسأل عن جمالها وروعتها.

كذلك رُوي عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وبسبب محبته لله تعالى، وبسبب مشاعر الرحمة والشفقة على خلق الله التي كان قلبه عامرًا بها، ظل ﷺ يدعو لمغفرة ذنوبهم. لا شك أن الله تعالى قادر على تعذيبهم، لكنه كان يدعو أن يغفر لهم، وذلك لأن الله تعالى قد علمه هذ الدعاء.

ثم هناك رواية عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: خَسَفَتْ الشَّمْس فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي، فَأَطَالَ الْقِيَامَ جِدًّا، (أي في الصلاة التي تصلى عند حدوث خسوف الشمس) ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ جِدًّا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ، فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبِّرُوا وَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا».

ثُمَّ قَالَ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ (ﷺ) وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ (هذا إنذار وتنبيه شديد يهز القلب، ألا توقظوا غيرة الله تعالى بالوقوع في الذنوب. اطلبوا رحمة الله تعالى وتجنبوا إثارة غيرته. ثم قال ﷺ:) يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

ثم قال ﷺ: ألا هل بلغت؟ أي هل أديت الرسالة إليكم؟ فنبههم إلى الرجوع إلى الله تعالى، وعبادته، والخضوع أمامه، وقال: في ذلك بقاؤكم، وفيه تكمن حياتكم. ولو علمتم ما أعلم من عمق هذه الأمور لتركتم الضحك ولبكيتم كثيرا، ودعوتم الله تعالى كثيرا.

فقد نبّهنا ﷺ إلى أن نولي الدعاء اهتماما كبيرا، وأن ننشئ علاقة خاصة مع الله تعالى.

لقد ورد في رواية عن مناجاته ﷺ في ميدان الحرب عن عبد الله بن عباس قال حدثني عُمَر بْن الْخَطَّاب ﷺ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ» فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ (أي كان جسمه أيضا يرتعد بسبب البكاء حتى سقط رداؤه) فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾

هذه الآية من سورة الأنفال. فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ.

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام:

لقد وُعد النبي ﷺ مرارا في القرآن الكريم بالانتصار على الكفار، ولكن حين بدأت معركة بدر، التي كانت أول معركة في الإسلام، دعا النبي ﷺ باكيا متضرعا فخرجتْ من لسانه ﷺ أثناء الدعاء كلمات: "اللهم إن أهلكتَ هذه العصابة فلن تُعبَد في الأرض أبدا". وكانت العصابة تشمل ٣١٣ شخصا (أو ٣١٩ بحسب بعض الروايات) فقط. حين سمع أبو بكر رضي الله عنه هذه الكلمات من لسانه ﷺ قال: يا رسول الله ﷺ لماذا تقلق لهذا الحد، فقد قطع الله لك وعدا مؤكدا بأنه سيرزقك فتحا. فقال ﷺ: هذا صحيح ولكنني أنظر إلى أنه سبحانه وتعالى غنيٌّ أيضا، أي أن إنجاز الوعد ليس حقا واجبا على الله. والآن يجب الانتباه إلى أنه ما دام النبي ﷺ قد التزم مقتضى الأدب مع الله تعالى لهذا الحد، فلماذا الإعراض عن معتقد مسلَّم به عند جميع الأنبياء أن النبأ الإلهي يتحقق تارة بكلماته الظاهرية وتارة بطريق الاستعارة والمجاز!

بعد سرد هذا الحدث قال لمعارضيه المعترضين على أن بعض نبوءاته لم تتحقق، إن لتحقق الأنباء أساليب شتى، إذ تتحقق أحيانا حرفيا وأحيانا في شكل آخر، ومن المؤكد أن الله سبحانه وتعالى ينجز حتما كل ما وعده. باختصار علينا أن نبقى منيبين إليه دوما حتى لا تتأخر لأجل غناه سبحانه وتعالى. وأن تحالفنا تأييدات الله ونصرته دوما.

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام:

افهموا جيدا أن الموحدين الصادقين هم فقط أولئك الذين لا يُظهرون حسناتهم مطلقا ولا يخافون العالم في سبيل قبول الحق. وإذا تعثر العالم نتيجة فعل من أفعالهم، فلا يأبهون به. يقول بعض الناس: لا يثبت عن النبي ﷺ بقدر ما كان الصحابة يقومون بمجاهدات وصيام، (إذ كان بعض الصحابة قد اقتربوا من حياة الرهبانية، أي كانوا قد أحبوا الدين لدرجة قد زهدوا في الدنيا تماما) ومن هنا لا يُستنبط أنهم كانوا سباقين على النبي ﷺ، والعياذ بالله. كلا، بل الحق أن الله تعالى قد أخرج النبي ﷺ بالجبر والإكراه من دائرة الخمول (فقد كان منقطعا إلى عبادة الله وحبه وكان الله سبحانه وتعالى وحده كل شيء في حياته، لكن الله أخرجه إلى الناس قسرا) ولم تنقطع عادته ﷺ بحب الخفاء هذه. وما أدراهم كم كان ﷺ غارقا في المجاهدات والعبادات سرا؟ مثل ذلك قد ذُكر سابقا وهو عبادته في المقبرة، فذكرها حضرتُه عليه السلام وأثبت أنه ﷺ كان يحب الخفاء. حيث لم تجده ﷺ السيدة عائشة حين استيقظتْ وكانت ليلته عندها، فاستغربتْ كثيرا وبحثت عنه، ولم تجده، ثم وجدتْه في مقبرة وهو يناجي ربه بمنتهى الضراعة ويقول ما مفاده: اللهم سجدتْ لك روحي وجناني وعظامي وكل شعرة من شعري. (ذكر ذلك حضرته عليه السلام بهذا الأسلوب ثم قال): فلو لم تعلم عائشة رضي الله عنها هذا الأمر لما علم أحد عن علاقته ﷺ مع ربه، (وكم كان يعبده سرا وخفاء). هكذا كانت مجاهداته ﷺ وعباداته. ولما كان الله تعالى قد فطر الأنبياء على الإخفاء فلذا لا تطلع الدنيا على

جميع سوانحهم. فهم لا يفعلون شيئا للدنيا. أما الذي يعاملونه ويتعلقون به فهو يعرفهم ويراهم في كل مكان، (أي هو يعلم أنهم يعبدونه ويحبونه، فهو عليم بكل شيء) فهم لا يعملون رئاء الناس.

ثم قال عليه السلام:

فيما يتعلق بتمتع النبي ﷺ بالدنيا فيمكن الاطلاع عليه من رواية جاء فيها أن عمر رضي الله عنه ذهب ذات مرة لزيارته وأرسل طفلا يستأذنه للدخول. وكان النبي ﷺ مستلقيا على حصير من سعف النخيل فلما دخل عليه عمر نهض وجلس. فحين رأى عمر رضي الله عنه البيت خاليا من كل شيء؛ ولم ير فيه من أسباب الزينة غير سيفٍ معلقٍ على معلاق وحصيرٍ كان ﷺ مستلقيا عليه وارتسمتْ آثاره على ظهره المبارك، بكى، فلما سأله النبي ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ قال: إن قيصر وكسرى يملكان أسباب الرفاهية والتنعُّم كلها وأنت في هذه الحالة مع أنك رسول الله وملِك العالمين! فقال ﷺ: يا عمر، ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب يركب جمله ويسافر إلى غايته في الصحراء في الحر الشديد، ويستظل تحت شجرة لشدة الحر وعندما يجف عرقه قليلا يتابع سفره.

كذلك ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَقام رسول الله ﷺ وقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، أي اعملوا الصالحات وارغبوا إلى الله تعالى، واعبدوه وانغمسوا في محبته فيُغفر لكم، وإلا فلا أغني عنكم شيئًا. ثم خاطب أقاربه وعشيرته الآخرين قائلاً: يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةَ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، أي أن عباداتكم وعلاقتكم بالله تعالى هي التي ستنجيكم.

ما كان النبي ﷺ يبالي بحياته مقابل حبه لله تعالى فعندما بدأ رسول الله ﷺ الدعوة، أتى أبا طالب وفد من قريش فقالوا: امنع ابن أخيك عن الطعن في آلهتنا، وإلا فسنمنعه نحن، ثم لا تتدخل في ذلك. قالوا إننا قد طلبنا منك أن تمنع ابن أخيك، وقلنا لك من قبل أيضًا لكنك لم تمنعه. والآن جئناك مرة أخرى، فإما أن تمنعه عن قول مثل هذه الأمور عن آلهتنا أو سنواجهه وإياك حتى يهلك أحد الفريقين. فلما قالت قريش هذا الكلام لأبي طالب أرسل في طلب رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخي، لا تحملني ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أن عمه سيترك نصرته وسيسلمه إلى قريش. فقال ﷺ: يَا عَمِّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ. ثم قام وانصرف، فدعاه أبو طالب وقال: ارْجِعْ يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُكَ أَبَدًا. هذه الواقعة مكتوبة في سيرة ابن هشام.

وقد ذكر حضرة المسيح الموعود عليه السلام أيضًا هذه الواقعة. فقال:

حين نزلت الآيات التي جاء فيها أن المشركين نجس، وشر البرية، وسفهاء، وذرية الشيطان، وأنهم وآلهتهم وقود النار وحصب جهنم، طلب أبو طالب النبيَّ ﷺ وقال: يا ابن أخي، قد استشاط قومك غضبا نتيجة شتائمك وكادوا يهلكونك وإيايَ، فقد سفَّهتَ عقلاءهم، سميت كِرامهم شرَّ البرية، واعتبرتَ آلهتهم – الجديرة بالاحترام عندهم – حصبَ جهنم ووقودَ النار، واعتبرتهم جميعا بشكل عام رجسا ونجسا وذرية الشيطان. فأقول نصحا لك بأن تكف لسانك وتتوقَّف عن السباب وإلا فأنا لا أقدر على مواجهة القوم. فقال النبي ﷺ في الجواب: أيا عمّاه، إن ذلك ليس سبًّا بل هو بيان الواقع، وذكرُ الأمر في محله تماما. وهذا هو الأمر الذي أُرسلتُ من أجله، فإذا كان في هذا السبيل موتي فأنا أقبله بكل سرور، فإن حياتي فداء هذا السبيل، ولن أكفّ عن قول الحق مخافة الموت. ويا عمِّ، إذا كنتَ ترى أنك عديم الحيلة وتخشى المعاناة، فأَقِلْني ذمّتي، فوالله إني لستُ بحاجة إليك أبدًا، ولن أمتنع عن تبليغ أحكام الله أبدًا. إن أوامر ربّي أحبُّ إليّ من نفسي. والله لو قُتلت في هذا السبيل لتمنّيت أن أُحيا ثم أُقْتَل، ثم أُحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل في هذا السبيل للأبد. فهذا ليس مقام خوف لي، بل إن غاية سعادتي تكمن في أن أؤذى في سبيل الله سبحانه وتعالى. (إزالة الأوهام)

كانت حياة الرسول الكريم ﷺ بأكملها عامرة بالعشق الإلهي. فمع مسؤوليته الكبيرة، كان يشتغل بالعبادة ليلًا ونهارًا. وبعد منتصف الليل كان يقوم لعبادة الله تعالى ويستمر في العبادة حتى الصباح، ولذلك قال النبي ﷺ إنه لما كان من الحق أني مقرب من الله تعالى وأن الله تعالى بفضله قد أكرمني بقربه، أليس من واجبي أن أشكره قدر استطاعتي؟ لأن الشكر في نهاية المطاف يكون مقابل الإحسان. أي عندما أحسن الله تعالى إلي فإنني أشكره.

وكذلك لم يكن يقوم بأي عمل كبير دون إذن إلهي، فكان يفعل ذلك عندما يأتي أمر الله، ولذا نرى أنه على الرغم من المظالم الشديدة من أهل مكة لم يترك مكة حتى نزل عليه الوحي من الله تعالى وأُمر بترك مكة عن طريق الوحي. وعندما أذن للصحابة بالهجرة إلى الحبشة نظرًا لشدة مظالم أهل مكة، وأبدوا له رغبتهم في أن يذهب معهم، قال لم أتلق بعد الإذن من الله تعالى. وفي وقت الظلم والاعتداء عندما يجمع الناس أصدقاءهم وأقاربهم حولهم، أمر النبي ﷺ جماعته بالهجرة إلى الحبشة وبقي وحده في مكة، لأن ربه لم يأمره بعد بالهجرة.

كلما سمعَ النبي ﷺ كلام الله دمعت عيناه عفويا، خاصةً الآيات التي نُبِّه ﷺ فيها إلى مسؤولياته. يرْوي عبد الله بن مسعود ﵁: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: "اقْرَأْ عَلَيَّ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: "إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي"، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قَالَ: "حَسْبُكَ الآنَ"، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ.

في سياق المحبة الإلهية، ذُكر في التاريخ حادث إصابته ﷺ بالجراح في سفر الطائف. ففي السنة العاشرة للنبوة، بعد وفاة أبي طالب، عندما بدأت قريش بصبّ المظالم على رسول الله ﷺ، ذهب إلى الطائف، ومكث فيها عشرة أيام يدعو إلى الإسلام، لكن لم يقبل دعوته أحد. وعندما ظن الزعماء أن الشباب قد يقبلون دعوته نتيجة تكراره ﷺ الدعوة، حرَّضوا السفهاء ضده، فبدأوا يرمونه بالحجارة حتى سالت الدماء من قدميه. كان زيد بن حارثة ﵁ معه فكان يحاول أن يتلقى الحجارة بجسده حتى أُصيب رأسه (أي رأس زيد بن حارثة) بجراح عديدة.

وفي هذا السياق وردت في صحيح البخاري رواية:.. أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ ..قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ (حين أُصبت بالجراح) قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ (أي يوم طائف) إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ (وهو جبل صغير قرب مِنى) فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ (أي أُسقطهما عليهم فيُدفنوا تحتهما) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

فغلَبت رأفة النبي ﷺ بهذه المناسبة أيضا فأنقذ هذا القوم، وبعد فتح مكة بفترة أسلم أولادهم.

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام في بيان مقام النبي ﷺ ومرتبته:

"إن ذلك النور الأجلى الذي وُهب للإنسان، أعني للإنسان الكامل، لم يكن ذلك النور في الملائكة، ولا النجوم، ولا القمر، ولا الشمس، ولم يكن في بحار الأرض ولا أنهارِها، ولا في اللَّعْلِ[1]، ولا الياقوت، ولا الزمرّد، ولا الماس، ولا اللؤلؤ؛ باختصار، لم يكن ذلك النور في أي شيء من الأرض أو السماء، وإنما كان في إنسان كامل، ذلك الإنسان الذي كان أتمَّ وأكملَ وأعلى وأرفعَ فردٍ من نوع البشر، وهو سيدنا ومولانا، سيد الأنبياء، سيد الأحياء محمد المصطفى ﷺ. فقد أُعطي هذا النور لذلك الإنسان، كما أُعطيه الآخرون أيضا -بحسب مراتبهم- الذين تصبّغوا بصبغته، أي أولئك الذين كانوا متصبغين بالصبغة نفسها إلى حد ما". (أي أُعطيه أيضا العاملون بسنته من أتباعه ﷺ)

ثم يقول ﵇ موضحا المراد من الأمانة: "والمراد من الأمانة جميع القوى والعقل والعلم والقلب والروح والحواس والخوف والحب والعزة والجاه وجميع النِّعم الروحانية والمادية التي يهبها اللهُ تعالى للإنسان الكامل

[1] اللعل: العقيق اللامع.

ثم يعيد الإنسان الكامل تلك الأمانة كلها إلى الله تعالى بحسب الآية: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ بمعنى أنه يفنى فيه ﷻ وينذر نفسه في سبيله".

أي إن الذين أعطاهم الله تلك الأمانات ينفقون قواهم كلها لنيل رضا الله تعالى، ليتم أداء تلك الأمانات، ولينالوا حب الله أكثر فأكثر. فهذه كانت عظمة تلك الأمانة التي أداها النبي ﷺ فانيا في الله تعالى.

يتابع المسيح الموعود عليه السلام موضحا الموضوع: "إن هذه الميزة وُجدت بوجه أعلى وأكمل وأتم في سيدنا ومولانا وهادينا، النبي الأمّي الصادق والمصدوق محمد المصطفى ﷺ ... كما يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. أي قل لهم إن صلاتي وعباداتي وجهودي وتضحياتي وحياتي ومماتي كلها لله في سبيل الله، الذي هو وحده رب العالمين كلها، والذي لا شريك له، وقد أُمرتُ وأنا أول المسلمين، بمعنى أنه ليس في الدنيا منذ بدايتها إلى نهايتها إنسان كاملٌ وفانٍ في الله من الدرجة العليا مِثلي يعيد أمانات الله كلها إليه تعالى.

إن هذه الآية تردّ على أولئك الموحّدين الجاهلين الذين يعتقدون بأن أفضلية نبينا ﷺ الكليةَ على الأنبياء السابقين ليست ثابتةً، ويقدّمون بهذا الشأن أحاديث ضعيفة ويقولون بأن النبي ﷺ قد نهى عن ذلك وقال لا تفضّلوني على يونس بن متّى. ولكن هؤلاء الجاهلين لا يدركون أنه حتى ولو كان ذلك الحديث صحيحا فهو على سبيل التواضع الذي كان من عادة النبي ﷺ. والمعلوم أن لكل قول سياق ومناسبة، فمثلا لو كتب أحد الصالحين في نهاية رسالته: "أحقر عباد الله"، فأيّ غباوةٍ وتجاسرٍ أكبرُ مِن أن يُستنتج من ذلك أن هذا الشخص بالفعل أسوأُ من كل الناس في العالم أجمعَ حتى من الوثنيين والفاسقين أجمعين، إذ يُقرّ بنفسه أنه أحقر عباد الله!

يجب أن نفكر بإمعان بأن الله جلّ شأنه ما دام قد سمّى النبي ﷺ أولَ المسلمين وعدَّه سيّدَ المطيعين المنقادين قاطبةً، وأوّلَ الذين أدّوا الأمانات كلها إلى الله تعالى، فهل يبقى بعد ذلك لأي مؤمنٍ بالقرآن الكريم مجالٌ لكي يجادل في مكانة النبي ﷺ العظمى؟ لقد بيّن الله تعالى في الآية المذكورة آنفا مدارج كثيرة للإسلام وأخبرَ أن أعلى هذه المدارج وأرفعها هي تلك الدرجة العليا التي أودعَها في فطرة النبي ﷺ.

ثم الترجمة المتبقية للآيات المذكورة آنفا هي أن الله جل شأنه يأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم إن سبيلي هو الصراط المستقيم، فاتّبِعوه ولا تتّبعوا السبل الأخرى لأنها تحيد بكم عن الله تعالى. فقال الله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾، أي اتّبِعوا سبيلي التي هي الحقيقة العليا للإسلام، فسوف يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم.

وقل لهم إن سبيلي هو أنني أُمِرْتُ أَنْ أُسلّم وجودي كله لله تعالى، وأجعل نفسي خالصةً لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، أي أن أفنى في الله فأكون خادمَ العالمين كما هو رب العالمين وأن أكون له كلّيًا وفي سبيله تماما. لذا فقد سلَّمتُ لله تعالى كل كياني وكل ما هو لي، فالآن ليس لي شيء، بل كل ما كان لي قد صار لله تعالى.

هذه هي المعرفة العظيمة التي منحها الله تعالى سيدَنا المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام بشأن مكانة النبي ﷺ العظمى ودرجته العليا، فبيّنَها لنا حضرتُه، ومع ذلك يتّهمنا معارضونا بأننا -والعياذ بالله- نسيء إلى النبي ﷺ، ونفضل عليه المسيحَ الموعود عليه الصلاة والسلام. وقى الله كلَّ أحمدي شر هؤلاء. لقد قال المسيح الموعود عليه السلام في أحد كتبه:

إنني دائما أنظر بعين الإعجاب إلى هذا النبي العربي الذي اسمه محمد (عليه ألف ألف صلاة وسلام). ما أرفعَ شأنَ هذا النبي! لا يمكن إدراكُ سموّ مقامه العالي، وليس بوسع إنسان تقديرُ تأثيره القدسي. الأسف، أن الدنيا لم تقدِرْ مكانتَه حق قدرها. إنه هو البطل الوحيد الذي أعاد التوحيد إلى الدنيا بعد أن غاب عنها. لقد أحبَّ الله حبًّا بلغ المنتهى، وذابت نفسه إلى أقصى الحدود شفقةً على خلق الله، لذلك فإن الله العالِم بسريرته فضَّله على النبيين كلهم، وعلى الأولين والآخرين أجمعين، وحقّق له في حياته كلَّ ما أراد. إنه ﷺ هو المنبع لكل فيض، ومَن ادّعى أيَّ فضيلة مِن غير الاعتراف بأنه قد نالها بواسطة النبي ﷺ، فهو ليس بإنسان، بل هو ذرية الشيطان؛ لأنه ﷺ قد أُعطيَ مفتاحًا لكل خير وكنزا لكل معرفة، والذي لا ينال عن طريقه ﷺ فهو محروم أزلي. من نحن وما هي حقيقتنا؟ سنكون من الكافرين بنعمة الله عز وجل إن لم نعترف بأن التوحيد الحقيقي إنما وجدناه عن طريق هذا النبي، وأن معرفة الإله الحيّ إنما تيسرت لنا بواسطة هذا النبي الكامل وبنورِه، ولم نتشرف بمكالمة الله ومحادثته التي نحظى من خلالها برؤية الله عز وجل إلا بفضل هذا النبي العظيم. إن أشعّة شمس الهداية هذه تقع علينا كالنور الساطع، ولا نستطيع أن نبقى مستنيرين إلا ما دمنا واقفين إزاءها. والذين يعتقدون أن الذي لا يؤمن بالنبي ﷺ أو يرتد، مع ثبوته على التوحيد ومع إيمانه بالله وحده لا شريك له، سينال أيضا النجاة ولن يضره عدم إيمانه بالنبي وارتداده شيئا، يجهلون في الواقع حقيقة التوحيد جهلا تاما. كلا، لا تتسنى النجاة بالاعتقاد بوحدانية الله فقط، إنما تتوقف النجاة على أمرين اثنين:

(1) أن يؤمن الإنسان بوجود الله وبوحدانيته بيقين كامل.

(2) أن يكون الحبُّ الكاملُ لله جل شأنه راسخا في قلبه حتى تصبح - نتيجةً لغلبة حبِّ الله واستيلائه عليه- طاعةُ الله تعالى راحةَ قلبه بحيث لا تحلو له الحياة دونها، ويطأ حبُّ الله حُبَّ غيره تحت الأقدام ويقضي عليه. هذا هو التوحيد الحقيقي الذي لا يتيسر دون اتّباعِ سيدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ.

لِمَ لا يتيسر؟ الجواب أن ذات الله تعالى هي غيبُ الغيب، ووراءَ الوراء، وعلى غاية من الخفاء، ولا يمكن أن تدركه العقول الإنسانية بمجرد قوتها، ولا يمكن أن يكون هناك أي برهان عقلي يمثل دليلا قاطعا على

وجود الله تعالى، لأن غاية مساعي العقل هي أن يقرّر بَعْدَ النظر في صنائع هذا الكون ضرورةَ وجود صانع له، ولكن الشعور بهذه الضرورة شيءٌ، أما الوصول إلى درجة عين اليقين بأن الإله الذي تقررت ضرورته عقلاً لموجود فعلاً، فهو شيء آخر تماما.

العقل يستطيع فقط أن يدل الإنسان على وجود إله، كما يعتقد كثير من الناس اليوم، لكنهم لا يعلمون من هو ذلك الإله.

وبما أن الدليل العقلي ناقص وغير مكتمل ومشكوك فيه وينقصه اليقين، لذلك لا يمكن لكل الفلاسفة أن يعرفوا الله معتمدين على العقل فقط. بل الحق أن معظم أولئك الذين يعتمدون على عقولهم فقط لمعرفة الله، يصبحون ملحدين دهريين في النهاية، ولا يغنيهم التفكّر في السماوات والأرض شيئا. إنهم يتخذون أولياء الله هزوا متذرعين بأن في الدنيا ملايين الأشياء التي نجدها عبثا لا جدوى منها ولم تتحقق عقلاً حكمتها الدالة على الصانع، إنما هي باطلة لاغية. الأسف كل الأسف أن هؤلاء الجهلاء لا يعلمون أن عدم العلم بشيء لا يستلزم عدمه. هناك مئات الألوف من أمثال هؤلاء الذين يزعمون أنفسهم عقلاء وفلاسفة من الدرجة الأولى، ولكنهم ينكرون وجود الله أشد الإنكار. ومن البيّن أنه لو وجدوا برهانا عقليا ناصعا على وجود الله لما أنكروه. وكذلك لو كانوا متمسكين ببرهان عقلي يقيني، لما كفروا بوجود الله بوقاحة كبيرة واستهزاء شديد.

وليس أحد ممن ركب سفينة الفلاسفة بناجٍ من طوفان الشبهات بل هو غارق حتما، ولن يغترف من معين التوحيد الخالص غرفة. فانظروا، ما أبطل وما أفظعَ الزعمَ القائل بأنه يمكن الوصول إلى التوحيد دون وسيلة سيدنا ومولانا محمد ﷺ وأنه يمكن أن ينال المرء النجاة بغيره ﷺ! فيا قليلي الفهم، كيف يمكنكم الإيقان بتوحيد الله ما لم توقنوا بوجود الله حق الإيقان؟ فتيقنوا أن التوحيد اليقيني لا يتأتّى إلا باتباع نبينا محمد ﷺ. فإننا نرى أنه ﷺ قد جعل العرب الملحدين والمنحرفين يؤمنون بوجود الله بإراءتهم ألوف الآيات البينات، وأن أتباعه الصادقين الكاملين كانوا ولا يزالون يُتِمّون الحجة على الملحدين بتلك الآيات المعجزة.

الحق والحق أقول إن الشيطان لا يغادر قلب الإنسان ولا يدخله التوحيدُ الصادق ولا يوقن أحد بالله ما لم يشاهد القدرات الحية لله الحي، وإن ذلك التوحيد الطاهر والكامل إنما يُنال باتباع نبينا محمد ﷺ وحده.

وفي هذا الزمان، قام المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام ببيان هذه التعاليم بوضوح. فيقول حضرته أيضا:

إن ذلك الحادث العجيب الذي جرى في برية العرب حيث بعث مئات الألوف من الموتى في أيام معدودات، وتحلى بالصبغة الإلهية أولئك الذين فسدت أخلاقهم على مرّ الأجيال، وأصبح العمي يبصرون، والبكم بالمعارف الإلهية ينطقون، وحدث انقلاب في العالم لم تره عين، ولم تسمع به أذن قط؛ هل تعرفون كيف حدث ذلك؟ إن تلك الدعوات التي دعا بها في جوف ليال حالكة عبدٌ متفانٍ في الله هي التي أحدثت ضجة في الدنيا، وأظهرت العجائب التي يبدو صدورها مستحيلا على يد ذلك الأمي الضعيف

الحيلة. اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله بعدد همه وغمه وحزنه لهذه الأمة، وأنزل عليه أنوار رحمتك إلى الأبد.

يقول حضرته: لقد وجدتُ من خلال تجربتي الشخصية أن تأثير الدعاء أنفذ من تأثير الماء والنار، بل ليس في سلسلة الأسباب الطبيعية شيء ذو تأثير عظيم مثل الدعاء.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للسير في هذا الطريق مع الإكثار من الأدعية المقبولة وأن يمنحنا التوفيق للدعاء بروحه الحقيقية وأن يجعلنا في الحقيقة من المؤمنين الصادقين الذين يؤدون حق الدعاء ويسعون أيضا للتأسي بأسوة النبي الكريم ﷺ.

***